

## القضية الفلسطينية في فكر إدورد سعيد

محمد كمال<sup>(١)</sup>

### مقدمة

في حوار لإدورد سعيد مع القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، أجاب سؤال محاوره المتمكن عن المصادقية التي نالها في الدوائر الغربية، فقال: كنت أتقن تاريخنا... أعرف ماذا حدث بالضبط.... ابن القضية وتعلّمت... لا يكفي أن تكون ابن القضية بل يجب أن تكون تلميذها"<sup>(٢)</sup>، وقد كان ابناً باراً للقضية الفلسطينية وتلميذاً نجيباً لها فصار صوتها القوى، وضميرها النقدي، وسفيرها المعتمد على مستوى الفكر العالمي.

تمثل القضية الفلسطينية الشغل الشغل لإدوارد سعيد - المولود في القدس وللمفارقة علي يد قابلة يهودية استأمنتها الأسر المسيحية والمسلمة على نساتها الحوامل وما يلدنه- ومع ذلك لم تلق الاهتمام الكافي من دارسي فكر إدورد سعيد الغربيين لأسباب مفهومة. وقد يفاجأ البعض أن أول أوراق مؤسسة الدراسات الفلسطينية، هي دراسة لسعيد بعنوان "القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي" صدرت عام ١٩٨٠، ذهب فيها مبكراً إلى أن ساحة كفاح القضية الفلسطينية في أمريكا هي المجتمع المدني لا المجتمع السياسي، وهو ما أثبتت الأيام صحته ودقته، كما عمل باحثاً زائراً في مؤسسة الدراسات الفلسطينية لشهرين في بيروت عام ١٩٧٩.

إن سيرة ومسيرة إدورد سعيد مضمفورة بالقضية الفلسطينية، ومهما اختلفنا في الأسس المعرفية والوجودية لرؤية

سعيد لهذه القضية والحلول التي طرحها لها، ومهما اتفقنا مع معظم مواقفه السياسية وتقديرنا لها في تعاملها مع القيادات الفلسطينية التي رأى أنها فرّطت في فلسطين، فإن الأمر الذي نخرج به من سيرته هو أنه أسهم بقوة وذكاء وبلاغة في صياغة عميقة وتأسيس نظري متماسك الأركان لبديهية يتناساها كثيرون من اليسار واليمين، وهي أن الصراعات الكبرى والنزاعات الممتدة تعود جذورها وأصولها إلى الفكر والثقافة. نعم، "الأصول" مع معرفتنا أن سعيد يميّز -ويفضل- البداية عن الأصل: الأولى علمانية ومُنتجة على نحو إنساني مستدم خاضع للفحص والتدقيق، والثاني مقدّس وأسطوري وثابت بحسب ما يرى.

يتناول هذا التقرير مكانة إدورد سعيد في التعريف بالقضية الفلسطينية وخدمتها، ومسيرة حياته وموقفه الكلي منها، وما تميّز به من كونه مثقفاً مسؤولاً متسماً فكره وفعله، مقاله وحاله، مع رصد لأهم ملامح فكره بخصوص القضية الفلسطينية، وهي: النقد الذاتي، والمشارك الإنساني، مأزق ضحية الضحية، ومعضلة الجغرافيا والديموجرافيا، ويختتم التقرير بعرض ماذا يبقى من فكر إدورد سعيد، وسيرته للأجيال القادمة.

### أولاً - مكانة إدورد سعيد في التعريف بالقضية الفلسطينية

#### وخدمتها:

اعتبره الشاعر الفلسطيني محمود درويش "ضميرنا وسفيرنا إلى الوعي الإنساني" ويؤكد "لو سُئل الفلسطيني عمّا يتباهى به أمام العالم، لأجاب على الفور: إدورد سعيد، فلم ينبج التاريخ الثقافي الفلسطيني عبقرية تضاهي إدورد المتعدّد المتفرّد، ومن الآن (أي وفاته) وحتى إشعار آخر بعيد، سيكون له الدور الريادي الأول في نقل اسم بلاده الأصلية من المستوى السياسي الدارج إلى: الوعي الثقافي العالمي. لقد أنجبت فلسطين، ولكنه -بوفائه لقيم العدالة المهذورة على

(١) باحث في العلوم السياسية

(٢) الحوار متاح على الرابط: <https://goo.gl/G٦٢nt٢>

القضايا العالمية، والشعوب الخاضعة للكولونيالية، ومطامحها وآلياتها المتوحّشة وجنوحها"<sup>(٣)</sup>.

### ثانياً- حياته وموقفه الكلي من فلسطين

ولد إدورد سعيد في الأول من نوفمبر ١٩٣٥ في القدس من والدة بروتستانتية تنتمي إلى عائلة ميسورة وتاجر فلسطيني مسيحي ثري حصل على الجنسية الأمريكية، وقد توفي الكاتب الكبير يوم الخميس الخامس والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٣ بعد صراع طويل مع مرض سرطان الدم - لوكيميا- الذي أصابه لمدة عشر سنوات وأوهن جسمه، لكنه لم يوهن عقله وإرادته وظل حتى وفاته يكتب ويقاوم كعادته التي عُرف بها كاتباً يتقدّم الصفوف الأولى.

وصل إلى القاهرة مع أسرته في العام ١٩٤٧ ثم توجّه في سن السابعة عشرة إلى الولايات المتحدة ليتابع تحصيله العلمي. وتخرج أولاً في جامعة برينستون، ثم حصل على شهادة دكتوراه في الأدب المقارن من جامعة هارفرد، وفي ١٩٦٣ بدأ التدريس في جامعة كولومبيا في نيويورك.

بعد هزيمة العرب في يونيو ١٩٦٧ انصرف إلى العمل على شرح قضية شعبه في الولايات المتحدة، وقد خاض مرّات عدّة مواجهات مع القيادة الفلسطينية، وأصبح إدورد سعيد عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني في ١٩٧٧ وحاول عبثاً إقناع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بأهمية الجاليات الفلسطينية المنتشرة في أنحاء العالم.

صدر أبرز كتبه "الاستشراق" في العام ١٩٧٨، وقد تُرجم إلى ٢٦ لغة، واعتباراً من ١٩٧٩ بدأ ينتقد أسلوب منظمة التحرير والدول العربية في التعامل مع القضية الفلسطينية، وظهر ذلك جلياً في كتابه "مسألة فلسطين"، وقد

أرضها، وبدفاعه عن حق أبنائها في الحياة والحرية- أصبح أحد الآباء الرمزيين لفلسطين الجديدة، إن منظوره إلى الصراع الدائر فيها هو منظور ثقافي وأخلاقي لا يبرّر فقط حقّ الفلسطينيين في مقاومة الاحتلال، بل ينظر إليه باعتباره واجباً وطنياً وإنسانياً أيضاً".

ويقول عنه جلال أمين: "لا أعرف رجلاً أو امرأة كسب لقضية الفلسطينيين عطف المثقفين في مختلف أنحاء العالم الذين يتكلمون ويقرأون بمختلف اللغات، أكثر مما كسبه إدورد سعيد لهذه القضية".

ويرى فيصل دراج أن إدورد سعيد أعطى في مساره "درساً نموذجياً في "الهجنة الحضيية"، فقد كان أميركياً يدافع عن القضية الفلسطينية، وكان فلسطينياً يندد بالسياسة الصهيونية، وكان ذلك الفلسطيني الأميركي الذي ينقد "المؤسسة العرفانية" (إشارة إلى ياسر عرفات) ويرى فيها شرّاً وبيلاً يهدّد الحق الفلسطيني".

احتفظ سعيد بموقف منهجي معرفي مسؤول من القضية الفلسطينية مؤكّداً على الوظيفة السياسية للثقافة "إدورد سعيد من قلة استعادت، بإصرار وبوعي عميق، واجترأ، وتحدّر، الوظيفة السياسية للثقافة والإبداع والكتابة، من دون أن يقع، حتى في أكثر المراحل سخونة وانفعالاً وعاطفية وذاتية، لا في المباشرة، ولا في التبسيط، ولا في الخطاب التعبوي الآني، أو الدوغمائية المغلقة أو الدعائية الضيقة. كان لنضاله أفق. بل كانت كل الآفاق المشرعة على المعاصرة في خدمة نضاله: من الفكر الذي رفض أن يكون مرتبطاً بما يسمّى "ما بعد الحداثة" بمضمونه العدمي أو التدميري، أو المفرغ من القيم والحقائق الكبرى، إلى السياسة التي جعل التزامه فيها التزاماً بالقضية الفلسطينية وبكل

(٣) هذه الشهادات متاحة على الرابط التالي:

صدرت له العديد من الكتب التي تناولت النزاع في الشرق الأوسط.

في ١٩٩١ استقال من المجلس الوطني الفلسطيني بسبب معارضته الشديدة لياسر عرفات وانتقاده له بسبب سعيه التقرب من "إسرائيل"، إلا أنه واصل النضال وبدأ يطالب منذ العام ١٩٩٤ باستقالة عرفات الذي وصفه بـ "بيتان الإسرائيليين" (نسبة إلى المارشال هنري بيتان الفرنسي الذي تعاون مع الألمان خلال الحرب العالمية الثانية). واعتبر سعيد أن عرفات وافق -من خلال اتفاقات أوسلو "١٩٩٣"- على التبرؤ من التاريخ الفلسطيني، وقد وصف اتفاقات أوسلو بين "إسرائيل" والفلسطينيين بأنها "أداة استسلام العرب" في وجه الدولة العبرية والولايات المتحدة، وبعد أن استقال إدورد سعيد من المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩١٩، اشتدت مناهضته لما يسمّى عملية السلام، وظل يمثل أحد الأصوات الهامة للمقاومة وسط جو يملؤه اليأس<sup>(٤)</sup>.

### ثالثاً- المثقف المسؤول المتسبِق

مسؤولية المثقف لدى إدورد سعيد تتمثل في: مواجهة الكاذبين الأقوياء بالحقيقة وعرض أكاذيبهم للتمحيص العام، وهي مسؤولية تستوجب ثمناً غالباً وقد تعرّض حياته للخطر، وقد دفع سعيد الثمن، وهو الرجل الذي سمّاه الصهاينة في مجلتهم النيويوركية Commentary في أغسطس ١٩٨٩ "أستاذ الإرهاب"، وهذدّ الصهاينة المتطرفون عائلته في فلسطين، ووضعته الرابطة الصهيونية على لائحة كبار المرؤجين للتأييد العربي في صفوف الطلاب والأساتذة الجامعيين في الولايات المتحدة الأمريكية، في بعض الأحيان كانت حياته عرضة للتهديد من مجموعات عنيفة، وكانت تلك التهديدات

(٤) المصدر السابق

جدية إلى حد أن «إف. بي. أي» كانت تحذّره بأن عليه أن يكون متنبهاً<sup>(٥)</sup>.

العلمانية لدى إدورد سعيد -وهو يصف نفسه بأنه علماني متشدد- في عمله الأخير الذي نُشر بعد وفاته بعنوان "عن الأسلوب المتأخر"<sup>(٦)</sup> هي الحل للمسألة الفلسطينية على المستوى المعرفي والوجودي والفكري والمستوى السياسي، فعلى المستوى المعرفي والوجودي يكتب تعليقاً على تمييز الفيلسوف الإيطالي فيكو بين الأُمّي واليهودي "أن تكون أُمّيًا غير يهودي يعني أن تخرج من الزمن المقدس والسرديات المقدسة، وأن تعيش بشكل دائم في التاريخ وبنظام غير نظام الله"<sup>(٧)</sup>، وعلى المستوى السياسي فإن الدولة الفلسطينية العلمانية الديمقراطية هي الحل للقضية الفلسطينية.

طالب سعيد دومًا بنزعة أنسنية ما بعد أوروبية عابرة للقارات، نزعة أنسنية تؤمّن بالفعل الإنساني وتدين الإقصاء مع افتتاح شامل على منابع المعرفة الإنسانية... مفكر مرتحل بين عوالم المعرفة، مثقف يقاوم من داخل الحقل الأكاديمي الغربي بفكر نقدي وثورّي لتكسير صنمية الآراء المسبقة<sup>(٨)</sup>.

يرى وليام هارت أن الدين يجعل مشروع سعيد أكثر قابلية للفهم والإدراك، خصوصاً إشاراته المبعثرة -لكن المستمرة- إلى الدين، وهذا يسلط الضوء على معاني العلمانية وتعميقاتها الجمّة، التي لم يعمل سعيد على تفسيرها البتة<sup>(٩)</sup>.

(٥) إدورد سعيد... مفكر عبر الحدود لتفسير العالم، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/fxz4wS>

(٦) إدورد سعيد، عن الأسلوب المتأخر: موسيقى وأدب عكس التيار، ترجمة: فواز طرابلسي، (بيروت: دار الآداب، ٢٠١٥)، ص ٣٤.

(٧) Edward W.Said, Beginnings: Intention and Method, Basic books, New York, ١٩٧٥, pp. ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٨) <https://goo.gl/MdQrqp>

(٩) وليام د. هارت، "إدورد سعيد والمؤثرات الدينية للثقافة"، ترجمة: د. قصي أنور الزبيان، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، ٢٠١١.

فالدين كما يرى هارت "يعود أحياناً وفي الأماكن غير المتوقعة بتأناً"<sup>(١٠)</sup> ومن ضمنها مشروع إدورد سعيد الفكري.

ويواصل وليام هارت عرض وجهة نظر مفادها إمكانية التعايش بين العلمانية والتدين قائلاً: يمكن للمرء أن يكون متديناً كلياً وعلماً، أو علمانياً كلياً ومتديناً، وتعني العلمانية عدم الاعتراف السياسي بالكنائس وغيرها من المؤسسات الدينية والتقاليد، وتشير في بعض الأحيان إلى نقد المعتقدات الدينية التقليدية مثل الرواية الإنجليزية لمعركة أريحا التي وقفت الشمس ثابتة خلالها<sup>(١١)</sup>.

#### رابعاً- ملامح فكر إدورد سعيد في القضية الفلسطينية

من أهم محددات فكر إدورد سعيد في النظر للقضية الفلسطينية النقد الذاتي للمشارك الإنساني، مأزق ضحية الضحية، معضلة الجغرافيا والديموجرافيا.

#### ١- النقد الذاتي

كعادة المثقف المسؤول يناضل على أكثر من جبهة ضد العدو الخارجي وأعدائه من المستبدين والفاستين "كان سعيد من أقوى المناهضين للخطاب الصهيوني الأمريكي، لكنه كان مع ذلك من أشدّ دعاة النقد الفلسطيني الذاتي، فلم يتردد عن الجهر بمطاوي الخلل المتفشّي في السلطة الفلسطينية، القائمة على السلطوية والقمع والفساد، وكان من أبرز منتقدي دكتاتورية الرئيس ياسر عرفات، ومقولة "ليس ثمة بديل آخر له"، و"جوقة المنتفعين المتحلّقين من حوله"، التي وجد فيها بعضاً من "سمات المافيا" التي تستبعد ذوي الكفاءة والشرف لصالح دائرة ضيقة من العملاء المُختَرَقين من قبل الموساد والمخابرات الأمريكية، ومن الانتهازيين المنشغلين بعقد

مختلف الصفقات التجارية على حساب الشعب الفلسطيني المعبّد<sup>(١٢)</sup>.

وقد بذل إدورد سعيد غاية جهده "في بيان دور المثقف في مواجهة السلطة في أزمنة الهزائم المتلاحقة"، فهو يقول: "تزداد أهمية الدور الذي يلعبه النقد والتذكير بالنواقص في غياب نظام قانوني ودستوري متكامل، ولا يصح هذا الأمر في حالة غزوة والضفة الغربية فحسب، بل ينطبق على أي مكان في العالم العربي، فالنقد يرفع من مستوى الوعي ويعيد ارتباط القادة بشعبهم، كما أن نقد السلطة واجب أخلاقي، إذ إن التزام الصمت أو الاكتفاء باللامبالاة أو الانصياع للسلطة الباغية كلها أمور تنم عن انعدام الحسّ الأخلاقي، إن شيئاً من النقد الذاتي كان كافياً للوصول لدرجة من الصدق مع الذات، ولدرء كثير من الهزائم العربية التي ساقتنا إليها خطانا بعد أوصلو وقبلها"<sup>(١٣)</sup>.

ومن هذه الانتقادات ما ذكره بخصوص اتفاقية أوصلو "في أكثر من موضع، قرأت أن الكراسي المصفوفة في حديقة البيت الأبيض -يوم توقيع اتفاقية أوصلو- كانت من ذلك النوع الذي يمكن طيه وإزاحته بعد انقضاء المناسبة، لكن المؤسف هو ما تبدى عبر كل تلك الأعوام المنصرمة، من أن الاتفاقية بأسرها كانت هي أيضاً من ذلك النوع الذي يسهل طيه كطي السجل ليُقذف في سلة المهملات، فلقد ذهب الداهيون إلى أوصلو وهم يعلمون أنها لا تمثل معاهدة سلام، بل محض إطار لبيان ترتيبات سلطة عاجزة مؤقتة، وقناة لتسهيل مفاوضات صورية كاذبة، ذهب الداهيون وهم يعلمون أن الأمر لا يعدو أكثر من تمثيلية، وألا حديث سيكون عن أي من المشكلات الصعبة: القدس والاستيطان واللاجئين والحدود، ذهبوا وهم يظنون أنهم مُنحوا هبة عظيمة

(١٢) داليا سعودي، ضحكات تنبأه ونبوءة إدورد سعيد، الشروق، متاح

على الرابط التالي: <https://goo.gl/vkYMNk>

(١٣) المصدر السابق.

(١٠) المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(١١) المصدر السابق، ص ٢٣٥.

لمجرد أن إسرائيل قد اعترفت بوجودهم. ذهبوا وفي نفوسهم عقدة نقص، وطمع في سلطة، واستعداداً لفساد، وافتقار لكفاءة، وبوادر انقسام، فبدوا أضعف شأنًا من حمل لواء قضيتهم العادلة وبأووا بما بأووا به اليوم، واستحقوا ضحكات رئيس وزراء الكيان الصهيوني<sup>(١٤)</sup>.

ويؤكد سعيد على أهمية الإرادة الفكرية قبل السياسية في المقاومة والتحرير، إذ يقول: "الخطوة الأولى لتحرير الأراضي المحتلة هي أن نقرر فكريًا أنها ستُحرر، فالوصول للهدف يتطلب تعبئة حقيقية واستعدادًا حقيقيًا. في حين أن السير على الطريق الحالي بقيادة الأشخاص الحاليين لن يؤدي سوى إلى المزيد مما نبحده الآن، أي الأوهام والخسارة والفساد".

## ٢- المشترك الإنساني

ويركز إدورد سعيد في تناوله وعرضه للقضية الفلسطينية على المشترك الإنساني ويحيل إلى مرجعية حقوق الإنسان، وهو يقول: "بعد ١٩٦٧، أدى احتلال الضفة الغربية وغزة إلى نشوء نظام عسكري ومدني للفلسطينيين كان هدفه إخضاع الفلسطينيين وتحقيق الهيمنة الإسرائيلية، أي بمثابة امتداد للنموذج الذي قامت عليه إسرائيل، وأنشئت مستوطنات في أواخر صيف ١٩٦٧ (وجرى ضم القدس)، ولم تقم بذلك أحزاب يمينية، بل حزب العمل الذي كان عضوًا في الدولية الاشتراكية، ولم يكن تشريع المئات من «قوانين المحتلين» يخالف بشكل مباشر أسس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فحسب، بل موثيق جنيف أيضًا، وتعددت هذه الانتهاكات لتمتد من الاعتقال الإداري إلى المصادرات الجماعية للأراضي وهدم المنازل والإجلاء القسري للسكان والتعذيب واقتلاع الأشجار والاعتقال وحظر الكتب وإغلاق المدارس والجامعات، لكن توسيع المستوطنات اللاشعرية استمر دائمًا، فيما شملت سياسة التطهير العرقي المزيد من أراضي العرب كي يمكن توطين اليهود القادمين من روسيا

وإثيوبيا وكندا والولايات المتحدة وغيرها من البلدان، بعد توقيع اتفاقات أوسلو في أيلول (سبتمبر) ١٩٩٣، شهدت أوضاع الفلسطينيين تدهورًا مستمرًا، وأصبح من المستحيل بالنسبة إلى الفلسطينيين أن ينتقلوا بحرية بين مكان وآخر، وحُظر عليهم الوصول إلى القدس، وأدّت مشاريع بناء ضخمة إلى تغيير جغرافيا البلد، وفي كل شيء جرى الحرص بدقة على التمييز<sup>(١٥)</sup>.

## ٣- ضحية الضحية

ويبرز سعيد ما يراه معضلة أخلاقية في القضية الفلسطينية، فالفلسطينيون هم ضحية الضحية، باعتبار أن اليهود ضحايا الغرب المسيحي إذ يقول: "لا جدال أن المآزق الأخلاقي الذي يواجهه كل من يحاول أن يتناول النزاع الفلسطيني/الإسرائيلي هو مآزق عميق، فاليهود الإسرائيليون ليسوا مستوطنين بيضًا من الصنف الذي استعمر الجزائر أو جنوب أفريقيا، على الرغم من أن وسائل مماثلة استُخدمت، ويُنظر إليهم بحق كضحايا تاريخ طويل من الاضطهاد الغربي المسيحي المناهض للسامية بشكل أساسي، وقد توجّ بفظاعات المحرقة النازية التي تكاد تتجاوز حدود التصديق؛ لكن بالنسبة إلى الفلسطينيين فإن دورهم هو دور ضحايا الضحايا، ويفسر هذا لماذا ينأى الليبراليون الغربيون بأنفسهم، وهم الذين أيّدوا علنًا حركة مناهضة نظام التمييز العنصري، أو الحركة الساندينية في نيكاراغوا، أو البوسنة، أو تيمور الشرقية، أو الحقوق المدنية في أميركا، أو إحياء الأرمن لذكرى الإبادة التي نفذها الأتراك أو قضايا سياسية أخرى كثيرة من هذا النوع، عن التأييد العلني لحق تقرير المصير للفلسطينيين. أما بالنسبة إلى السياسة النووية لإسرائيل، أو حملة التعذيب المشرّعة قانونيًا، أو استخدامها للمدنيين كرهائن، أو رفضها إعطاء الفلسطينيين أذونات للبناء على أراضيهم في الضفة

(١٥) إدورد سعيد، أوسلو وما بعدها، متاح على الرابط التالي:

<https://goo.gl/rPiqME>

(١٤) مقتبس في المصدر السابق نقلا عن إدورد سعيد.

الغربية، فإن القضية لم تُطرح إطلاقاً في المجال العلني الليبرالي، ويرجع السبب في جانب منه إلى الخوف، وفي جانب آخر إلى الشعور بالذنب<sup>(١٦)</sup>.

#### ٤ - معضلة الجغرافيا والديموجرافيا

ويلفت النظر إلى صعوبة عملية فرضها الجغرافيا والديموجرافيا على القضية الفلسطينية فيقول: "ثمة تحدُّ أكبر من السابق نفسه، ويتمثل في صعوبة الفصل ما بين المجموعتين السكائيتين الفلسطينية والإسرائيلية، وهما الآن متداخلتان من نواح تفوق الحصر، على رغم الهوة الكبيرة بينهما، ويدرك الكثيرون منّا، الذين نادوا سنين طويلة بإقامة الدولة الفلسطينية، أن «دولة» كهذه (المزدوجان هنا في مكانهما الصحيح!) إذا قُدِّر لها أن تولد من كارثة أوسلو، ستكون ضعيفة ومعتمدة اقتصادياً على إسرائيل، ومفتقرة تماماً إلى أي قوة أو سيادة. فوق كل ذلك فإن خريطة الضفة الغربية حالياً تبين أن مناطق الحكم الذاتي منفصلة بعضها عن بعض (مساحتها الآن لا تتجاوز ثلاثة في المئة من مساحة الضفة الغربية، فيما تواصل حكومة نتياهو رفض إعطائها ١٣ في المئة إضافية) وهي بذلك ستكون بمثابة بانتوستانات تسيطر عليها إسرائيل من الخارج. الحل المعقول الوحيد، إذن، هو أن يجدد الفلسطينيون ومساندوهم الصراع ضد المبادئ الإسرائيلية الأساسية التي تضع غير اليهود موضع الهوان في أرض فلسطين التاريخية، يبدو لي أن هذا هو المطلب المنطقي لأي حملة لتحقيق العدالة للفلسطينيين، بدل المطالبة بالانفصال بين الطرفين، كما تفعل بين حين وآخر، وبتردُّ وضعف، حركة «السلام الآن» الإسرائيلية، ليس هناك مبدأ لحقوق الإنسان، مهما كان مطّاطاً، يمكن أن يتوافق مع التمييز الذي تمارسه إسرائيل ضد غير اليهود، أي ضد الفلسطينيين بالدرجة الأولى، وليس من أمل في مصالحة على أرض فلسطين (إسرائيل) ما لم تتم مواجهة التناقض بين عقيدة إسرائيل

الانعزالية على الصعيدين الديني والإثني من جهة، ومتطلبات الديمقراطية الحقيقية من الجهة الثانية. أما التهرُّب من هذه القضية أو تغطيتها كلامياً أو اللجوء إلى تعريفات غائمة لـ«السلام» فلن تجلب للفلسطينيين، وللإسرائيليين على المدى الطويل، سوى المعاناة والقلق<sup>(١٧)</sup>.

#### خاتمة: ماذا بقي من إدورد سعيد؟

بقي النضال والمثال والنموذج بالإضافة إلى الناتج العلمي الذي نافع فيه وبه دوائر الصهيونية الإعلامية والأكاديمية في الولايات المتحدة وأوروبا وغيرها، حيث ترجمت أعماله هذه بالإضافة لباقي أعماله التأسيسية كالأستشراق والثقافة والإمبريالية إلى عشرات اللغات.

ومن كتبه التي تناولت بشكل مباشر القضية الفلسطينية: مسألة فلسطين (١٩٧٩)، ما بعد السماء الأخيرة: حياة الفلسطينيين (١٩٨٦)، سياسة التجريد: كفاح شعب فلسطين لتقرير المصير ١٩٦٩ - ١٩٩٤ (١٩٩٤)، السلام والسخط عليه: مقالات عن فلسطين وعملية السلام في الشرق الأوسط (١٩٩٥)، نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها (٢٠٠٠)، تأملات من المنفى ومقالات أخرى (٢٠٠٠)، من أوسلو إلى العراق وخريطة الطريق (٢٠٠٤).

إن نضال إدورد سعيد فكرياً وبجشاً ودراسة ومواقف سياسية من أجل القضية الفلسطينية هو دفاع عن الذات والهوية، ولعل رثاء الشاعر الفلسطيني محمود درويش لإدورد سعيد - وكانا صديقين - يكشف عن هذا المعنى، يقول درويش:

والهويّة؟ قُلْتُ

فقال: دفاعٌ عن الذات...

إنَّ الهوية بنتُ الولادة لكنها

في النهاية إبداعٌ صاحبها

(١٧) المرجع السابق.

(١٦) المرجع السابق.

لاوراثة ماضي  
أنا المتعدّد... في  
داخلي خارجي المتحدّد  
لكني  
أنمي لسؤال الضحية.

وصفوة القول أننا بحاجة إلى تمثّل نضال سعيد، وقد نقول "جهاده" المدني، من أجل القضية الفلسطينية وما بث في مواقفه العملية وخلفيته المعرفية من اتساق فكري وأصالة وعمق مع الاستعداد لدفع الثمن من حياته وصحّته. إن ما يحتاجه كل المدافعين والمناضلين والمجاهدين من أجل القضية الفلسطينية وهو نفس ما أعجب به إدورد سعيد من كلمات لقسطنطين رزيق، هو حاجتنا جميعاً إلى "معرفة شاملة قوية ممزوجة بإيمان متّقد"<sup>(١٨)</sup>، أي أن نكون أبناء قضايانا وتلاميذها، كما ذكر سعيد في حوارته الذي أُشير إليه في بداية التقرير.

---

(١٨) إدورد سعيد، القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي، سلسلة مؤسسة الدراسات الفلسطينية رقم (١)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٢.